

هل كان لدى (ابن عربي) اضطراب نفسي وإدراكي؟

الكاتب

د.محمد بن إبراهيم العوضي

فصول

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
مكة المكرمة
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

فاضحة الملحدين وناصحة الموحدين

للإمام الفقيه

علاء الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد البخاري الحنفي (٨٤١هـ)

دراسة وتحقيق

الطالب / محمد بن إبراهيم العوضي

بإشراف / كل من فضيلة

د. سفر بن عبد الرحمن الحوالي ــ د. بركات عبد الفتاح دويدار

قسم الدراسة

رسالة لنيل درجة الماجستير ١٤١٤هـ

ـ الذهبي والناحية المرضية عند ابن عربي :

لم يقتصر الذهبي على ترجمة ابن عربي ونقد أفكاره وكتبه فحسب ، وإنما حاول أن يجد تفسيراً لكلماته ودعاويه غير المعقولة ، وكان خلاصة رأيه ، أن استهلاك ابن عربي لجهازه العضوي ، الذي أخضعه منذ مطلع الشباب لرياضات ومجاهدات شديدة في الزهد والسياحة ، أحدثت عنده اضطرابًا نفسيًا فسيولوجيًا

---

(١) ـ ميزان الاعتدال ٣/ ٦٦٠.

(٢) ـ قال الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢٢٥/٢٣ «قرأت بخط السيف الحافظ : كان الحريدي من أفتن شيء ، وأضره على الإسلام ، تظهر منه الزندقة والاستهزاء بالشرع ، .... وكان مستخفًا بأمر الصلوات».

(٣) ـ هو الإمام الحافظ سيف الدين أبو العباس ، أحمد بن عيسى بن عبد الله ، المقدسي الصالحي الحنبلي ، المتوفى سنة (٦٤٣)هـ. انظر ترجمته : سير أعلام النبلاء ١١٨/٢٣ ، ذيل طلقات الحنابلة ، طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٥٠٧، لابن رجب ص ٢٤١.

(٤) ـ انظر: تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي ص١٧٨ القول المنبي في ترجمة ابن عربي ورقة ١٠٣.

في مزاجه ، ظهر في صورة خوارق عديدة عناها في حياته ووصفها بالدقة والتفصيل في كتاب الفتوحات. يقول الذهبي : «هذا الرجل كان قد تصوف ، وانعزل وجاع ، وسهر ، وفتح عليه بأشياء امتزجت بعالم الخيال ، والخطرات ، والفكرة ، واستحكم به ذلك حتى شاهد بقوة الخيال أشياء ظنها موجودة في الخارج. وسمع من طيش دماغه خطابًا اعتقده من الله ولا وجود لذلك أبداً في الخارج»[١]. ويقول في موضع آخر : «وما عندي أن محيي الدين تعمد كذبًا ، لكن أثرت فيه تلك الخلوات والجوع فساداً وخيالاً وطرف جنون»[٢].

وعند الرجوع إلى سيرة ابن عربي ، وفيما حكاه هو عن نفسه نجده يصرح بما توصل إليه الذهبي ، فقد قال في «الفتوحات»[٣] أنه عانى في إشبيلة ، قبل رحلته إلى المشرق ، أزمة ووساوس طويلة استمرت طوال ثلاث سنوات ، ابتداء من سنة ٥٨٣هـ. ولابد أن يكون انقطاعه فترةً في صحراء خارج دمشق من الأمور التي ساعدت على اشتداد تلك المشوشات على عقليته ، والتي يعتبرها ابن عربي أحيانًا واردات إشراقية وإلهية. وانعكس ذلك - كما يقول «بلاثيوس» - في كتبه الثلاثة التي فرغ منها في تاريخ متأخر ، وهي «الفصوص» و«الفتوحات» و«الديوان».

ويقول ابن عربي : «ومما قلته وأنا منفرد في فلاة شيماء :

ولي إله ليس له أنيس   سوى الرحمن فهو له جليس
يذكره فيذكره فيبكي   وحيد الدهر جوهره نفيس»[٤]

وكما أكد ابن عربي ما قاله الذهبي عن خلواته رياضاته ووساوسه ، كذلك يؤكد لنا الشطر الآخر من كلام الذهبي ألا وهو أن ما يشاهده من مخاطبات أو

(١) - تاريخ الإسلام ، الطبعة الرابعة والستون ، ص ٣٥٤.

(٢) - ميزان الاعتدال ٦٥٩/٣.

(٣) - انظر : الفتوحات المكية ١٩٩/٤ ، نقلاً عن ابن عربي حياته ومذهبه ص ٢٦١.

(٤) - محاضرات الأبرار ١١٧/١ ، ابن عربي حياته ومذهبه ص ٨٦.

صور ، ليس لها وجود إلا في ذهن ابن عربي أما في الخارج فلا يوجد شيء حقيقي.

يقول ابن عربي : «لقد بلغ بي قوة الخيال أن كان حبي يجسد لي محبوبي من خارج لعيني ، كما كان يتجسد جبريل لرسول الله ﷺ ، فلا أقدر أنظر إليه. ويخاطبني وأصغي إليه وأفهم عنه»[١]. وعندما نقارن بين ما توصل إليه العلاج النفسي المعاصر في تحديد مظاهر اضطرابات التفكر عند الإنسان ، وبين ما سجله ابن عربي عن تجاربه ومشاهداته وأخباره ، فإننا نجد أن هناك قواسم مشتركة بين الاثنين ، تجعلنا نقدر اللفتة الذكية التي أشار إليها الذهبي ، لحالات الاضطراب الإدراكي والنفسي التي صاحبت ابن عربي. وليس الذهبي هو الوحيد القائل[٢] بوجود نوع من المرض كان يصيب ابن عربي بين فترة وأخرى ، وإنما ذهب الإمام ابن الجزري[٣] إلى القول بمرض ابن عربي كذلك ، مع الاختلاف في تحديد طبيعة

---

(١) ـ ابن عربي حياته ومذهبه ص ١٦٣.

(٢) ـ وهم الباحث محمود الغراب في كتابه «محيي الدين بن عربي ترجمة حياته من كلامه» ص١١، وذلك في اعتباره المستشرق «آسين بلاثيوس» هو الذي اتهم ابن عربي بالمرض والاختلال العقلي. والأستاذ غراب يعوزه الاطلاع على كتابات وبحوث الأئمة المتقدمين ، ولو فعل لتوصل إلى نتائج مفيدة ولكانت كتاباته أكثر نضجًا وموضوعيةً ، بل لو أكمل قراءة كتاب المستشرق لوجد أنه أشار في الفصل الأخير إلى سبق الذهبي في تبني هذا الرأي. ولكن الأستاذ غراب نسخة مكررة للشيخ الشعراني واليافعي وغيرهم من الذين ينطلقون من قناعات شعورية في تحديد مواقفهم. أما بحوثهم فأخذت طابعًا تبريريًا لإرضاء الجانب الشعوري عندهم ، ومن ثم خلت كتاباتهم من الرؤى النقدية العميقة أو التحليل الدقيق ، ويصدق عليهم قول الامام الحسين بن الأهدل اليمني في كتابه «كشف الغطاء في الرد على ابن عربي» لم يكن ماقاله ـ يقصد اليافعي في تبرئة ابن عربي ـ عن روية «بل سبق الخاطر فتبعه القلم» ص ٢٦١.

(٣) ـ هو العلامة محمد بن محمد بن محمد العمري ، الدمشقي، ثم الشيرازي ، الشافعي ، المعروف بابن الجزري. مقرىء ، محدث ، مؤرخ ، مفسر ، فقيه ، نحوي ، من كتبه النشر في القراءات العشر وغيرها توفي ٨٣٣ هـ.

انظر ترجمته في : الضوء اللامع : ٢٥٥/٩ ، شذرات الذهب : ٢٠٤/٧ ، البدر الطالع ٢٥٧/٢.

نوع المرض وما ترتب عليه من نتائج فكرية عند ابن عربي ، يقول ابن الجزري : وأحسن ما عندي في أمر هذا الرجل: أنه لما ارتاض غلبت عليه السوداء[١]. فقال ما قال ، ولهذا يختلف كلامه اختلافا كبيراً وتناقض تناقضًا ظاهراً فيقول اليوم شيئًا ويقول غداً بخلافه. وذلك بحسب ما تخيل إليه السوداء والله أعلم»[٢].

ومن مقارنة رأي الذهبي برأي الجزري يتبين لنا أن كلا الإمامين يتفقان في تحديد علة المرض العقلي الذي أصاب ابن عربي ، ألا وهي «الرياضة الصوفية». لكنهم اختلفوا في تشخيص المرض وفي نتائجه ، فالذهبي يرى أن المرض هو عبارة عن خيال قوي جامح ونتيجته توهم عند ابن عربي أنه يسمع خطابات إلهية حقيقة في الخارج. أما ابن الجزري فيحدد نوع المرض وهو «السوداء» ونتيجته هو ما نراه من تناقض في كتابات ابن عربي فمرةً يتكلم مقرراً مبادىء الإسلام على طريقة أهل السنة، ومرة يأتي بأقوال وفلسفات الملاحدة.

وبهذا تبين أن تشخيص الذهبي يجعل المرض نفسيًا، وتشخيص ابن الجزري يجعل المرض عضويًا. ونحن نختار رأي الذهبي فهو أقرب إلى الحقيقة من حيث المرض. وأما من حيث النتيجة ، فلقد أشرنا أكثر من مرة أن ابن عربي غير متناقض لأن ابن عربي يتكلم بلسانين ، بلسان أهل الظاهر وبلسان أهل الباطن ، وكل قوم يقدم لهم غذاءً فكريًا يناسبهم ، فكلامه للفقهاء يختلف عن كلامه لفلاسفة الوجودية. وخطابه لأهل الشريعة غير خطابه لأهل الحقيقة ، وكلماته للواصلين تختلف عن كلماته للسائرين وهكذا. أما ما يبدو من تناقض بين قوله

---

(١) ـ السوداء والدم والبلغم والصفراء، هي الأخلاط الأربعة التي زعم الأقدمون أن الجسم مهيأ عليها، بها قوامه ومنها صلاحه وفساده ، والسوداء : وهي المادة الثخينة المترسبة في الكبد عقب احتراق الغذاء فيها ، ومن علامات غلبة السوداء سواد الدم وغلظته وزيادة الوساوس والفكر ، والسوداء تغلظ الدم ، وتغذي الطحال والعظام. انظر : القانون في الطب : ١٣/١ ، ١٨ ، ١٢١. الطب من الكتاب والسنة ص ٦ ، ٧ ، الإفصاح في فقه اللغة : ١٠٩/١.

(٢) ـ كشف الغطاء ص٢٢٤ .

بوحدة الوجود وبين نصوصه التي يصرح فيها بموافقته لعقيدة المسلمين ، التي تثبت ثنائية الكون ، خالق ومخلوق ، وأن هذا جمع بين النقيضين الوحدة والكثرة.

فجوابه : أن ابن عربي لم يجمع بين النقيضين الحقيقيين أي الوحدة والكثرة الحقيقيين ، بل كان يثبت أحد النقيضين وهو «الوحدة» إثباتًا حقيقيًا ، ويرى النقيض الآخر وهو «الكثرة» نقيضًا اعتباريًا ، أي إن الكثرة اعتبارية لا حقيقة لها[١].

ـ عرض تطبيقي بين تجارب ابن عربي وما يقوله العلاج النفسي :

في البداية ألفت الانتباه إلى أن اضطراب التفكير ليس قاصراً على أصحاب الذكاء الضعيف كما هو شائع ، وإنما قد يكون المريض «على درجة عالية من الذكاء »[٢] . ولذا يرى الدكتور عبد القادر محمود أن فلاسفة آخرين غير ابن عربي، يشتركون معه في النواحي النفسية العصابية ، وعقد مقارنة بين ابن عربي والفيلسوف نيتشه[٣]. فمن مظاهر اضطراب تكوين التفكير :

* التفكير الذاتي أو الخيالي : وهو ينبع من الذات دون الواقع ويكون أقرب إلى الخيال ، ونتيجة العوامل اللاشعورية والدوافع الغريزية ، والرغبات المتمركزة حول الذات[٤].

وهذا ما قاله الذهبي في صورته العامة ، بل وهذا ما يقوله ابن عربي كما في النص الذي نقلناه عنه في الصفحة الماضية[٥].

---

(١) ـ انظر : تفصيل هذا الموضوع في كتاب مرتبة الوجود ، الجزء الأول الفصل الخاص بدراسة فصوص ابن عربي المتضاربة.

(٢) ـ انظر : انهيار العقل في مرض الفصام ، للدكتور عزت سيد إسماعيل ص ١٧٣.

(٣) ـ الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة ، للدكتور عبد القادر محمود ص ٩٥.

(٤) ـ الصحة النفسية والعلاج النفسي ، للدكتور حامد زهران ص ١٤٦.

(٥) ـ لاحظ أن التطبيق بين حالة ابن عربي وما يقرره العلاج النفسي ليس في التفاصيل وإنما في الفكرة العامة.

* **إقحام الأفكار** : «وفيه يشكو المريض من أن الأفكار توضع في رأسه دون إرادته»[١].

وفي ذلك يقول ابن عربي : وما قصدت في كل ما ألفته مقصد المؤلفين ولا التأليف ، وإنما كان يرد علي من الحق تعالى موارد تكاد تحرقني ، فكنت أنشغل عنها بتقييد ما يمكن منها فخرجت مخرج التأليف لا من حيث القصد ، ومنها ما ألفته عن أمر إلهي أمرني به الحق في نوم أو مكاشفة»[٢].

* **الرمزية والغموض** : يقول الدكتور عزت إسماعيل : «قد يعاني بعض المرضى من فقدان الاستبصار بما هم عليه من اضطراب فكري ، ويعتبرون الغموض والإبهام في تفكيرهم هو نوع من التعمق ، وأن انحرافات الارتباطات لديهم نوع من الابتكار والإبداع ، وبهذا تتجه اهتماماتهم نحو الموضوعات الفلسفية الزائفة ونحو الموضوعات السحرية الغامضة»[٣].

ويقول زهران : إن المريض يتحدث بالرموز والأمثلة والعبر بإفراط ، وتكون غير مترابطة وتعبر عن معان خاصة لديه[٤].

فإذا طبقنا هذه الفقرة على ابن عربي فإننا نجد في أسلوبه من الغموض والرمزية ما أشكل فهمه على أقرب الناس إليه وهم كبار الصوفية من شراح الفصوص ، ولقد بالغ في الرمزية إلى درجة الخروج عن الأدب في كتابه ترجمان الأشواق وكله أبيات غزلية فلما تورط قال إنه لا يريد المعاني الحقيقة للكلمات الواردة في الأبيات من خدود وقدود وأرداف وشفاه ...إلخ ، وإنما هي رموز

---

(١) ـ الصحة النفسية والعلاج النفسي ص ١٤٩ ، وانهيار العقل ص ١٧٤.

(٢) ـ عنوان الدراية ص ١٦٣ ، الدر الثمين ص ٤٦.

(٣) ـ انهيار العقل ص ١٧٤.

(٤) ـ الصحة النفسية والعلاج النفسي ص ١٤٦.

للواردات الإلهية[(١)]. وإذا كان المريض يعتبر تلك الرموز معاني خاصة لديه فلا يوجد في تاريخ الإسلام من خص نفسه بخصوصية المصطلحات والرموز مثل ابن عربي.

وأما أن عبارات المريض تكون غير مترابطة ، ويعتبر هذا نوعًا من الابتكار والإبداع ، فهذا أيضًا ما تميزت به موسوعة ابن عربي الفتوحات المكية ، يقول الدكتور عمر فروخ : «ولعل أعظم ما يجعل أسلوب ابن عربي غامضًا - فوق ما فيه من الرمز وضرورة التأويل الباطني - أنه «أسلوب برسامي» ، إذ هو في الحقيقة «نتش من هنا وهناك» ينتقل ابن عربي فيه من الكلام على الله إلى الكلام على الرسل فالعالم فالنفس فالنحو فالبلاغة وما إلى ذلك انتقالاً سريعًا غير متسق»[(٢)]. وابن عربي يعتبر هذا الأسلوب ابتكاراً وإبداعًا ، ولكن لا يرجع هذا الابتكار إلى القدرة العقلية الذاتية ، كما يفعل الشعراء والفلاسفة وسائر المبدعين ، وإنما أسند هذا الابتكار إلى الإلهام كعادته فقال عن كتابه الفتوحات «فالعلم الإلهي هو الذي كان الله سبحانه معلمه بالإلهام والإلقاء وبإنزال الروح الأمين على قلبه ، وهذا الكتاب من ذلك النمط عندنا ، والله ما كتبت منه حرفًا إلا عن إملاء إلهي ، وإلقاء رباني أو نفث روحاني في روع كياني»[(٣)].

وإلى جانب اضطراب التفكير عند ابن عربي فهناك شواهد تدل على أنه كان يعاني أيضًا ، من اضطرابات في الإدراك ومن ذلك :

---

(١) - انظر كلامه في «ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الاشواق» ص ٩ ، وانظر إنكار العز بن عبد السلام على طريقة الصوفية هذه في إساءة الأدب مع الله ص ٢٠١ من كتاب كشف الغطاء ، وانظر كلام البقاعي أيضًا ص ٢١٨ من كتاب «تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد» لبرهان الدين البقاعي. وهو ضمن كتاب مصرع التصوف.

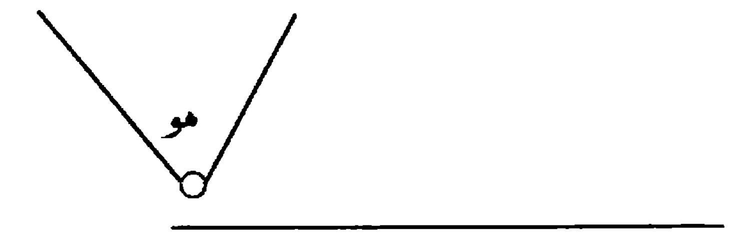
(٢) - التصوف في الإسلام ص ١٦٩.

(٣) - انظر : الكبريت الأحمر ٤/١ ، كشف الظنون ١٢٣٨/٢.

* الهلوسات البصرية : وفيها يرى المريض صوراً ومناظر لا وجود لها لأشخاص أو حيوانات أو أشباح أو ملائكة ... إلخ، وقد تكون الصور ثابتة أو متحركة ، واضحة أو غامضة. ويستجيب المريض لهذه الصور فيحاول لمسها أو الإقبال عليها أو الابتعاد عنها[١].

وفي ليلة من شهر ربيع الثاني سنة ٦٢٧هـ ، أصابت ابن عربي هلوسة بصرية حادة جداً : فعلى أرضية من النور الأحمر ظهر لعينيه شكل هندسي ذو لون أبيض يحيط باسم : «هو» ، فلما شاهد ابن عربي ذلك غشي عليه[٢].

يقول ابن عربي في الفتوحات : «في ليلة تقييدي لهذا الفصل ، وهي الليلة الرابعة من شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وستمائة الموافقة ليلة الأربعاء الذي هو الموفي عشرين من شباط ، رأيت في الواقعة ظاهر الهوية الإلهية شهوداً وباطنها شهوداً محققًا ، ما رأيتها قبل ذلك في مشهد من مشاهدنا ، فحصل لي من مشاهدة ذلك من العلم واللذة والابتهاج ما لا يعرفه إلا من ذاقه. فما كان أحسنها من واقعة ، ليس لوقعتها كاذبة. خافضة رافعة! وصورتها مثالاً في الهامش لما هو ، فمن صوره لا يبدله ، والشكل نور أبيض ، في بساط أحمر له نور أيضًا في طبقات أربع ، هذه صورة أيضًا روحها في ذلك البساط في الطرف الآخر في طبقات أربع ، فمجموع الهدية ثمانية في طرفين مختلفين في بساط واحد. فأطراف البساط ما هي البساط ولا غير البساط. فما رأيت ولا علمت ولا تخيلت ، ولا خطر على قلبي مثل صورة ما رأيت في هذه الهدية. ثم إنها له حركة خفيفة في ذاتها أراها وأعملها من غير نقلة ولا تغير حالته ولا صفة»[٣].



---

(١) ـ الصحة النفسية ص ١٤٤.
(٢) ـ ابن عربي حياته ومذهبه ص ٨٦.

(٣) ـ الفتوحات المكية ٢/٥٩١ ، والشكل المثبت منقول عن طبعة بولاق. وانظر : ابن عربي حياته ومذهبه ص ٨٦ ـ ٨٧.

وأحيانًا تجتمع عليه الهلوسات السمعية والبصرية ، يحكي قصته العجيبة مع الكعبة فيقول : ولقد نظرت يومًا إلى الكعبة وهي تسألني الطواف بها وزمزم يسألني التضلع من مائة رغبة في الاتصال بالمؤمن سؤال نطق مسموع بالأذن. فخفنا من الحجاب بهما لعظيم مكانتهما من الحق عما نحن عليه في أحوالنا من القرب والله وهي تقول لي : تقدم حتى ترى ما أصنع بك ، كم تضع من قدري وترفع من قدر بني آدم وتفضل العارفين علي وعزة من له العزة لا تركتك تطوف بي ، فرجعت مع نفسي، وعلمت أن الله يريد تأديبي فشكرت الله على ذلك وزال جزعي الذي كنت أجده، وهي والله فيما يخيل لي قد ارتفعت عن الأرض بقواعدها مشمرة الأذيال، كما يشمر الانسان إذا أراد أن يثب من مكانه يجمع عليه ثيابه. هكذا خيلت لي قد جمعت ستورها عليها لتثب علي، وهي في صورة جارية لم أر صورة أحسن منها، ولا يتخيل أحسن منها فارتجلت أبياتًا في الحال، أخاطبها بها وأستنزلها عن ذلك الحرج الذي عاينته منها ، فما زلت أثني عليها في تلك الأبيات وهي تتسع وتنزل بقواعدها على مكانها، وتظهر السرور بما أسمعها ، إلى أن عادت إلى حالها كما كانت، وأمنتني وأشارت إلي بالطواف. فرميت بنفسي على المستجار وما في مفصل إلا وهو مضطرب من قوة الحال إلى أن سري عني، وصالحتها وأودعتها شهادة التوحيد عند تقبيل الحجر ..... فقالت لي : هذه أمانة عندي أرفعها لك يوم القيامة أشهد لك بها عند الله. هذا قول الحجر لي ، وأنا أسمع الإلهي الذي يليق بذلك الموطن في معرفتنا ، فأنشدتهما مخاطبًا ومعرفًا بما هو الأمر عليه مترحمًا من المؤمن الكامل :

يا كعبة الله ويا زمزمه   كم تسألاني الوصل صه ثم مه
ما كعبة الله سوى ذاتنا   ذات ستارات التقى المعلمة

وكانت بيني وبين الكعبة في زمان مجاورتي بها مراسلات ومعاتبة دائمة ..... وذلك لأني كنت أفضل عليها نشأتي وأجعل مكانتها في مجلى الحقائق دون مكانتي وأذكرها من حيث ما هي نشأة جمادية من أول درجة من المولدات

...... فلاشك أن الحق أراد أن ينهني على ما أنا فيه من سكر الحال فأقامني من مضجعي في ليلة باردة مقمرة، فيها رش مطر، فتوضأت وخرجت إلى الطواف بانزعاج شديد، وليس في الطواف أحد سوى شخص واحد فيما أظن ... ولما نزلت قبلت الحجر، وشرعت في الطواف، فلما كنت في مقابلة الميزاب من وراء الحجرات، نظرت إلى الكعبة قد شمرت أذيالها ، واستعدت مرتفعة عن قواعدها وفي نفسها إذا وصلت بالطواف إلى الركن الشامي أن تدفعني بنفسها وترمي بي عن الطواف بها، وهي تتوعدني بكلام أسمعه بأذني، فجزعت جزعًا شديداً ، وأظهر الله لي منها حرجًا وغيظًا بحيث لم أقدر على أن أبرح من موضعي ذلك وتسترت بالحجر ليقع الضرب منه عليه جعلته كالمجن الحائل بيني وبينها، وأسمعها فشكرت الله. ومن ذلك الوقت وقع الصلح بيني وبينها، وخاطبتها بتلك الرسائل السبعة فزادت بي مرحًا وابتهاجًا... »[١].

هذا النص الطويل أسوقه لأنه يكاد يعبر عن تجربة مكتملة للاضطراب العقلي والنفسي وآثاره على البنية العضوية لابن عربي ، وهو يغنينا عن سوق نصوص كثيرة مفرقةً في هذا الموضوع.

ففي النص السابق يؤكد ابن عربي أكثر من مرة أنه سمع خطاب الكعبة بأذني رأسه ، وذلك ليدفع توهم القارىء تفسير هذا الخطاب تفسيراً أدبيًا مجازيًا كما يعبر الأدباء والشعراء. ونجد أن هذه الهلوسة السمعية والبصرية ، أثرت في نفسه تأثيراً بالغًا لدرجة الخوف والتراجع والاستتار عن الكعبة خشية أن تضره ماديًا، ثم انتقل الاضطراب النفسي إلى بنيته العضوية خصوصًا في آلام مفاصله.

وهناك نصوص كثيرة لابن عربي يتحدث فيها عن سماعه للجمادات والحيوانات والنباتات وغيرها[٢]. وكذلك مشاهداته لشخوص غير منظورة لغيره من عوالم متعددة (الأشباح ، والأرواح)[٣].

---

(١) ـ الفتوحات المكية ١/ ٧٠٠ ـ ٧٠١.

(٢) ـ انظر : الروحية عند ابن عربي للدكتور عبد الجليل راضي ص ٢١٥.

(٣) ـ المصدر نفسه ص ٥٢٨.

والذي أميل إليه بعد هذا العرض ، أن ما ذهب إليه الذهبي من أن ابن عربي ما تعمد الكذب كلام صحيح ، لأنه مريض في عقله يصنع لنفسه عالمًا خياليًا ثم يقنع ذاته بذاته أنه حقيقة واقعية. وفي ذلك يقول الدكتور فرج عبد القادر طه[١]: «ويكون المريض في مثل هذه الحالات مصدقًا لكل ما يحس به ، كالنائم الذي يرى حلمًا في نومه ، لكن المريض بالهلوسة يكون في حالة اليقظة»[٢]. ويرى الدكتور أن الذي يخدع الناس في عدم اكتشاف هذا المرض ، أن الشخصية المريضة تحتفظ عادة بإمكانياتها العقلية دون تدهور، فعلى سبيل المثال يظل ذكاء الفرد وذاكرته ومعلوماته دون أن يصيبها الضعف إلا في النادر إن حصل. ويتخذ المريض من إمكانياته العقلية التي لم تتدهور ومن مظهره الخارجي السوي سنداً لتبرير صدق معتقداته الهذائية التي لا يشك في صدقها ، والدعوة بين المحيطين به لتصديقها ومؤازرة دعواه[٣].

وهذه ليست حالة خاصة بابن عربي، وإنما تصيب كثيراً ممن أخضعوا أنفسهم لبعض التجارب الروحية ، فهم صادقون ولكن متوهمون ، ونرى ابن تيمية في حديثه عن التميز بين الوحدة الشهودية والوحدة الوجودية ، يشير ناقداً حالة التوهم النفسي عند بعض السالكين فيقول : «وهؤلاء قد لا يتعمدون الكذب ، ولكن يخيل لهم أشياء في نفوسهم ويظنونها في الخارج»[٤].

وكذلك أرجع الشوكاني إلهامات الصوفية إلى اختلال في المخيلة وظنون باطنة أو كما قال : «ظن باطن وتخيل مختل».

---

(١) ـ الدكتور فرج عبد القادر طه : عضو مجلس إدارة الجمعية الدولية لعلم النفس التطبيقي ، وخبير (علم النفس) بمجمع اللغة العربية ، ورئيس قسم علم النفس كلية الآداب ـ جامعة عين شمس.

(٢) ـ انظر : معجم علم النفس ص ٤٧٧.

(٣) ـ المصدر نفسه ص ١٦٩.

(٤) ـ الفرقان ص ١٠٣.

(#) ـ انظر : قطر الولي على حديث الولي ، ص ٢٣٩.

ويعتبر الدكتور إبراهيم هلال من النقاد الذين برزوا مبكراً في إرجاع أحوال الصوفية إلى : «أسباب مرضية بعضها نفسي ، وبعضها عضوي»[١] ، وقد قام الباحث ناجي حسين جودة بدراسة موسعة ضم الآراء السابقة وزاد عليها آراء المعاصرين من شتى المدارس الغربية والعربية المختصة بالدراسات النفسية الفلسفية وعقد فصلاً ناقشها مناقشة جيدة.

أشير إلى ذلك لأهمية ملاحظة الأحوال المرضية وعلاقتها بما يسميه بعضهم «بالوسواس الديني» حتى تكتمل أدوات البحث العلمي للقضاء على الخرافات من جهة وللتمييز بين ما هو حق من كرامات ومعجزات وما طفحت به كتب المسلمين المتأخرة من مبالغات في أخبار الملهمين والأولياء وأصحاب الخوارق.

- جنون العظمة (تضخم الأنا) (عشق الذات) :

ما سبق تقريره ظن راجح عندي لرأي الإمام الذهبي في ابن عربي ، أما ما أقطع به وأجزم بحصوله يقينًا ، هو أن ابن عربي مصاب بما يسمى بجنون العظمة، أو «تضخم الأنا» أو «عشق الذات».

فالقارئ في كتب ابن عربي يلاحظ كثرة ما يرويه لنا عن الكرامات والخوارق والإلهامات والمنامات .... تنتهي بخاتمة ذكية يبرز فيها ابن عربي نفسه بطلاً متفوقًا يزاحم الأولياء في منازلهم ، بل والأنبياء!!.

لقاؤه مع الحضرة ، اجتماعه بالأقطاب ، حديث الجمادات والنباتات والحيوانات إليه أو عنه ، مخاطبة الكعبة له ، نطق طفلته بالأحكام الفقهية وهي في المهد[٢] ، تعيين والده ليوم وفاته ، لقاؤه مع أرواح الموتى ....إلخ . كل هذه وغيرها يوظفها ابن عربي لشخصه ، ويأسر فيها عقول وقلوب بعض قرائه.

---

(١) ـ انظر : التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة ص ٢٦٠.

(٢) ـ قال ابن عربي : «واتفق لي مع بنت ترضع ، عمرها دون السنة ، فقلت لها : يا بنية ـ فأصغت لي ـ ما تقولين في رجل جامع امرأته فلم ينزل ، ما يجب عليه؟ فقالت : يجب عليه؟ فقالت يجب عليها الغسل ، فغشي على جدتها من نطقها. هذا شهدته بنفسي». انظر : التصوف = =

وأكتفي بهذا المثال التفصيلي ، ولاحظ كيف يوظفه ابن عربي لتعظيم شخصيته ، حدث عن نفسه فقال : رأيت ليلة أني نكحت نجوم السماء كلها فما بقي منها نجم إلا نكحته بلذة عظيمة روحانية ، ثم لما أكملت نكاح النجوم أعطيت الحروف فنكحتها ، وعرضت رؤياي هذه على من عرضها على رجل عارف بالرؤيا بصير بها ، وقلت للذي عرضتها عليه لا تذكرني ، فلما ذكر له الرؤيا استعظمها وقال : هذا هو البحر العميق الذي لا يدرك قعره ، صاحب هذه الرؤيا يفتح له من العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب ما لا يكون فيه أحد من أهل زمانه ، ثم سكت ساعة وقال : إن صاحب هذه الرؤيا في هذه المدينة فهو ذلك الشاب الأندلسي[1] الذي وصل إليها »[2]. حقًا كما قال زكي مبارك إنها رؤية بهلوانية. نعم إنها لنرجسية مفرطة.

لقد تضخمت الذات عند ابن عربي ووصلت في قمتها عندما ادعى أنه المقصود بخاتم الولاية المحمدية ، وقد مهد لذلك بقصة طويلة في الفتوحات[3]. وصرح في أكثر من موضع بذلك ، منها قوله :

أنـا ختـم الولايـة دون شـك لورث الهاشمي مع المسيح[4]

ثانياً : أخطاء العلماء المنهجية في الحكم على ابن عربي :

١ ـ الإخلاص لا يستلزم الصواب :

من المفكرين الذين وقعوا في هذه الزلة المنهجية الدكتور محمد سعيد

= الإسلامي لزكي مبارك جـ١ ص ١٢٤ ، عن الفتوحات المكية ٨٤٢/١ وقد كرر ابن عربي هذه الحكاية في الجزء الثالث ص ٢٢ فذكر أن الطفلة كان عمرها دون السنتين وفوق السنة.

(١) ـ يقصد نفسه (ابن عربي الاندلسي).

(٢) ـ التصوف الإسلامي ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٣) ـ انظر : الفتوحات ٣١٨/١.

(٤) ـ الفتوحات ٢٤٤/١. وقد جمع الباحث عبد الله الملا نصوصه الكثيرة في ختم الولاية المحمدية الخاصة به. انظر : مرتبة الوجود ٥٥٠/١ وما بعدها.